عبقـــرية فنـــان

أرجو أن ألتمس العذر من القارئ لهذا الاستغراق فى الحديث عن ذكريات الماضى .. فقد حددت سلفا فى هذه السلسلة من المقالات تحت عنوان (عود على بدء) فرضية الدوران فى المجئ و الرواح بين الماضى و الحاضر بين الداخل و الخارج .. فقدر لها ان تأخذ هذا المسار المتشعب .. المتغلغل فى الماضى بكل مآثره.. المتفاعل مع الحاضر بقدر ما أوتى من قدرة التحليل لظواهره.. والمتطلع الى المستقبل بأمل تغذيته بالخبرة المفترض فيها الثراء و التى تنتقل من جيل الى آخر .

لقد كتبت فى مقدمة ديوان (نقوش على البحر) عام 1978 (ارجو ان يكون فى بعدى عن الساحة العذر كل العذر فى الإ فراط أو التفريط فى الصراحة) وأزيد هنا..أو الامعان فما يبدو فيه الجهل ببواطن الأمور حيث أننى لم أكن معاصراً لكثير من الأحداث التى اتصدى لها فى الكتابة خلال ثلاثة عقود أنقضت .. حتى بعض صانعى الأحداث ما زالوا أحياء يعيشون فى ذاكرتى وان رحلوا .. وبعض المقيمين الأحياء منهم ما زالوا غائبين عن ذهنى ربما بفعل عامل الزمن .. ولكننى ما زلت أرى أن كل من يستطيع ان يكتب كلمة أو يضع لبنة فى صرح البناء الفكرى الذى يتشكل باستمرار من القديم والجديد .. له أجر المحاولة ان أصاب أو أخطأ .. والله وراء القصد ..

عود على بدء .. أردت ان أتلمس دربى فى الحديث عن أسطورة فنية فى الغناء السودانى .. لم تتوفر لها كل عناصر التكوين و انتشكلت بقناعة أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان .. ليصنع لوحة فنية فى شكل (الموناليزا) او (العشاء الأخير) ولم تنتقص من قدرها مآسى التجربة .. فصنعت من نار المعاناة وقودا للابداع فلم تذهب الى زاوية النسيان .. لقد صنع مع الفنان محمد وردى لوحة فنية رائعة لم يكتب لها البقاء لذات الأسباب .. وصنع لنفسه مدرسة فنية فى الشعر الغنائى ما زالت مناهجها موصولة بالجيل الجديد وان لم توثق فى معاهد التدريس .. وترك لقبيلة الشعراء تراثا من المفردات .. والجمل الشعرية ذات السهل الممتنع ما زال يتكرر فى عبارات متجددة فى القاموس المعاصر لغناء ا لمطربين الجدد .

لقد تعرفت على الشاعر الراحل المقيم اسماعيل حسن فى (حى السجانة) .. وكان حى السجانة .. حديقة زهور .. فيها كل الألوان ..وكان ورشة فن تعمل ليل نهار فى صناعة المبدعين من الشعراء .. والملحنين والمطربين .. حتى ان الذين عاشوا خارج ذلك الحى كانوا ينهلون من نبعه الثر .. وعطائة الفياض .. جيئة وذهابا فى هرولة مستمرة بين منزل اسماعيل حسن فى السجانة ودار الأذاعة والتلفزيون فى ام درمان.
التقيت به فى منزله فى السجانة فى عام 1959 عندما جئت فى زيارة للخرطوم فى اجازة الصيف من حنتوب الثانوية .. ووجدت نصف أعضاء نقابة الفنانين يمارسون نشاطات اشبه باستديو فى لحظة البروفة .. بعضهم يكتب الشعر .. وآخر يلحن .. واخر يغنى فى هدوء .. وأخير ينظر الى كل هولاء فى إعجاب شديد..

وأصبح هذا النمط من الحياة صورة متكررة فى بيوت الفنانين فى السجانة .. عثمان حسين .. فتاح الله جابو .. عبدالله رابح و حسن بابكر حتى لا أتوه فى (حارة زمان) من جديد.. وشاهدت بعينى ميلاد قصيدة كتبها الشاعر اسماعيل حسن فى ورقة صندوق السجائر الفارغ وعرضها على الموسيقار الموهوب عبدالله عربى . وبدأ يلحنها الفنان المبدع محمد وردى وقبل ان تكتمل جاء المساء .. وكان الجميع على موعد للذهاب الى (معرض الثورة) 17 نوفمبر فى عهد الفريق عبود فى ميدان عبد المنعم بالخرطوم ثلاثة .. وكانت الاذاعة الخارجية فى ذلك المعرض تقدم الاغنية المفضلة فى برنامج (ما يطلبه المستمعون) مقابل (قرش صاغ) .. ودفعنا اكثر من مرة لنستمع الى أغنية " يا طير يا طائر " وكل أغنيات المطرب المرافق المرهف الأستاذ محمد

PDF processed with CutePDF evaluation edition www.CutePDF.com

وردى .. التوأم الصنو والاسم المرادف فى الثنائى (وردى – اسماعيل) حتى حان الفراق.. وجاء زمن المأساة ..

فالتقيت مرة بالأستاذ أسماعيل حسن امام مبنى البنك الزراعي السودانى .. ووقفنا طويلا نتحدث عن الاغتراب .. وعرفت أن اسماعيل قد أنخرط فى النشاط السياسى فى الاتحاد الاشتراكى وما زال يعمل فى البنك الزراعى .. وكان ممزقا بين روحه التواقة للأنعتاق والانفلات من قبضة (لزوم ما لا يلزم) حيث كان يعيش غربة سياسية داخل وطنه .. وأخرى نفسية داخل بدنه المغموس فى عشق تراب الشمالية (ومواويل حد الزين) ونقابة الفنانين المنقسمة بين الموالين و المعارضين للنظام.. ونداء المطربين المتحرقين الى المصالحة حتى لو كانت فى بيوت الأعراس .. والشوق الى الاذاعة والتلفزيون خارج زنزانة السياسة .. وقيود الوظيفة ..

وعلمت أن ما يربطه بالفنان محمد وردى لم يكن أفضل حالا من الواقع المتردى للعلاقات الأنسانية القديمة حتى أصبح أضعف من خيط العنكبوت خاصة وقد أصبح وردى رهين المحبسين .. البيت أم السجن .. وما زال يغنى للملايين التى تبعثرت فى كل وادى .. فى بلادى ..
واذكر للتاريخ عن لقائى بالفنان محمد وردى عام 1984 فى الحفل الساهر الخاص فى فندق شيراتون أبوظبى كان يقول خلافا مع الجميع الذين يردد ون مقولة (ما البديل ؟؟) يقول أنتم هنا تنظرون فى هذه الفنادق الفاخرة .. والصالونات الساهرة وهناك آخرون يناضلون من أجل ايجاد البديل وستشهدون قريبا البديل .. ولم تنقض شهور حتى حدثت انتفاضة ابريل وما زال السؤال حائرا..هل كان وردى يعرف الحقيقة أم أنه الحس السياسى .. أم أنها أمنية الحالم .. أم كل هذه المعانى مجتمعة ؟ أسئلة مؤجلة حتى لقاء قريب باذن الله .

عود على بدء .. لقد خلق اسماعيل حسن جواً من الألفة فى الوسط الفنى انتقل الى بيوت كل المطربين .. وقد وضح فى أغنية (عارفنوا حبيبى) وما أثير حولها من ضجة هل هى لوردى فى الأصل ام عثمان حسين أم ربما اخيرا .. وفى مسار مختلف دخل ابن البادية فى خط المواجهه .. المهم لقد نجح الفنان عثمان حسين فى نيل قصب السبق وقدم الأغنية رغم أن أسماعيل حسن كان يملك من الموهبة الفنية والمقدرة الشعرية ما يجعلة قادرا على كتابة عشرات الأغانى المماثلة والمتنوعة والمتميزة عليها .. ولكنه اراد لهذا الحريق أن يشتعل .. وهو كثيراً ما كان يعشق الحرائق الفنية التى تؤججها رياح الصحافة ولا تطفئها الا ماء نقابة الفنانين بقيادة المايسترو الراحل أحمد المصطفى صديق الجميع.

والتقيت آخر مرة بالشاعر المتفرد اسماعيل حسن و أنا عائد من أبوظبى فى اجازة قصيرة فى ندوة حول (المصنفات الفنية) برئاسة الدكتور اسماعيل الحاج موسى وزير الاعلام فى حكومة مايو .. وعندما قابلنى اسماعيل حسن قال لى : أى ريح أتى بك الى هنا؟ قلت: جئت أشارك ! قال : تشارك أم تعارك..هذه معركة بين الحق و الباطل ومحسومة أصلا!! قلت : لماذا جئت أنت إذن ؟ قال: جئنا نردد قول الشاعر الذى يقول :

كالذى القوه فى اليم مكتوفاً وقيل له.. اياك.. اياك ان تبتل بالماء

فقال لى : أين هى المصنفات التى نختلف عليها .. ونريد تصنيفها .. فهى تدور فى حلقة واحدة .. لا طعم ولا لون ولا رائحة إما مع أو ضدالنظام.. أليست مصنفة أصلا؟! ونحن هنا نبحث عن ابرة فى كومة قش!! لقد كان هادئا فى عمق .. وثائراً فى عقل .. ولاذعا فى صمت .. وغاضبا فى صبر .. وعبقريا فى كل الازمان .. ولكنها عبقرية الفنان .

الا رحم الله الشاعر المبدع الفريد فى عصره
و لنا عودة باذن الله

الدكتور الزين عباس عماره–أبوظبى